اليهودي و السلطان

قدّم اليهودي "ديزرائيل" الصانع الماهر إلى السلطان قطعة حلي ذهبية نفيسة، صاغها فأتقن صنعها.

ولأنّ اليهود محترفون لتجارة الذهب وصناعته، فقد جعل اليهودي من هذه القطعة، تحفة نادرة، أعجب بها السلطان أيّما إعجاب، وقال: حقًا.. إنّها لتحفة ثمينة نادرة، فكم تريد من المال ثمنًا لها؟ فقال اليهودي: لا أريد شيئًا. هنا قال السلطان: كيف ذلك؟ سوف أعيدها إليك إن لم تؤجر عليها.

كان للسلطان تجارب مع أمثال هذا الرجل، وكان يعرف أنّ اليهودي مخادع ولا يقع إلّا واقفًا، ولا يقدّم هدية لأحد إلّا إذا كان يبتغي من ورائها منافع عدة، قد تخفى عن فطنة العامة، وإن لم تخف عن الحاذق اللبيب!

قال اليهودي:

- هذه هدية منّي إلى جلالتكم. فقال السلطان:
- إذًا تمنّى عليّ ما تشتهي نفسك!

أخرج اليهودي من جيبه قطعة صغيرة من خشب رقيق، مربعة الشكل، طول ضلعها واحد سنتيمتر أي أنّ مساحتها واحد سنتيمتر مربع، أمسك بها بطرفي إصبعيه، الإبهام والسبابة لصغر حجمها، ثم أشار بها إلى السلطان قائلًا: أريد أن أتملك قطعة أرض في بلدكم الغالية على نفسي، بجوار مسكني في حجم هذه القطعة، ومساحتها واحد سنتيمتر مربع.

عندئذ دهش السلطان، وضحك ضحكات متوالية، ظهر فيها قهقهة عالية، لتفاهة مطلب اليهودي، وموقفه، الذي يثير الدهشة والسخرية، وحدّثته نفسه أنّ وراء ذلك خدعة، فقال: تمنّ يا دزرائيل شيئًا مفيدًا، بلا هرج، ودون لف أو دوران يتناسب مع هديتكم النفسية.

قال اليهودي:

- لو أنّ مولاي السلطان أفسح لي صدره دقيقة واحدة لشرحت له بقية طلبي.

أنصت السلطان له، ثمّ قال:

- إذن أكمل يا دزرائيل.

هنا قال اليهودي:

- أريد أن يسمح لي مولاي بعد تمليكي هذه القطعة الصغيرة أن يضاعف ذلك الجزء من الأرض لمدة شهر بحيث يضاعف هذا السنتيمتر المربع في كلّ يوم يمرّ، خلال الثلاثين يومًا إلى ضعف المساحة التي كان عليها في اليوم السابق حتّى ينتهي الشهر.

وأردف اليهودي قائلًا:

- هذا يمعني أنّه في اليوم الثاني لحصولي على الأرض تضاعف المساحة؛ فتصبح سنتيمترين مربع، وفي اليوم الثالث تضاعف المساحة لتصبح أربعة سنتيمتر مربع.

قال السلطان:

- لا بأس يا دزرائيل.

وحينما همّ اليهودي بالقول: وفي اليوم الرابع.. قاطعه السلطان قائلًا:

- ثمانية سنتيمتر مربع.

نظر اليهودي إلى السلطان مبتسمًا يتلمس منه أن يستمرّ في الردّ على ما يقول، فقال:

- وفي اليوم الخامس .. وصمت.

فأشار السلطان قائلًا:

- فهمت يا دزرائيل.. هكذا تريد لمدة الثلاثين يومًا.

صمت السلطان برهة، ثمّ قال:

- اطمئن سأجعل مطلبك هذا موضع عنايتي، ثم تسلّم هديته.

ابتسم اليهودي، وتهلّلت أسارير وجهه بالفرح، وقال:

- أنار الله قلبك يا مولاي، وجعلك عونًا لأصدقائك ومحبيك.

استخفّ السلطان بطلب اليهودي من السنتيمترات البسيطة، التي طلبها نظير تلك التحفة النادرة، وجاء بوزيره وسأله:

- ما رأيك في طلب دزرائيل؟

قال الوزير متوجّسًا:

- أخشى، يا مولاي، أن تكون هذه القطعة من الأرض هي مسمار جحا، فلا توافقه على شيء حتّى نبحث أمره، ونعلم مكنون نفسه، ونجرّب ما سوف تصنع أيام قلائل مع فكرته، فإن وجدنا خيرًا مددنا هذا الأجل، وإن وجدنا فيه ضررًا رفضنا مطلبه.

ولمّا كان هناك ملاك كثيرون من اليهود يتملّكون أرضًا في بلاده، لم يتردد السلطان في تمليكه هذه القطعة من الأرض نظير هديته.

أمّا مسمار جحا، الذي أشار إليه الوزير، فيروى أنّ منزلًا كان لجحا، فأراد رجل أن يبتاعه، فاشترط جحا أن يبقى مسمار على الحائط داخل المنزل في ملكيته.

استسهل الرجل الأمر، ووافق، فالمسمار لن يضرّه في شيء، ومن ثمّ باع جحا المنزل للرجل من دون أن يبيعه المسمار.

فكان جحا كلّما اشتدّت حرارة الشمس يطرق باب البيت فيفتح له الرجل، فيقول:

- حرارة الشمس شديدة، وأريد أن أستظِّل بظل مسماري. فيأذن له الرجل بالدخول.

ثمّ يجيء مرة أخرى ليقول:

- شدّني الشوق لرؤية المسمار. ثمّ يعاود مجيئه في منتصف الليل فيقول:
- أريد أن أطمئن على المسمار. ثمّ يأتي في ليلة بردها قارس وفي يده قطعة من قماش يقول:
- أريد أن أدفئ المسمار، وأبقى في جواره بعض الوقت لأطمئن عليه.

استمرّ جحا على هذه الحال، في كلّ يوم تتكرّر الزيارات بذريعة جديدة، حتّى ضاق صدر الرجل، ولم يستطع معه صبرًا، وباع البيت لجحا، بثمن بخس وانصرف، وهذه قصة مسمار جحا!

مّا توجّس الوزير وقال للسلطان: ربّما تكون هذه القطعة هي مسمار جحا، حرص السلطان على متابعة الموقف، وأمر الوزير بإبلاغه تباعًا بما يدور بعد حصوله على هذه القطعة من الأرض، ودراسة موقفه لمدة عشرة أيّام، حتّى يعرف قدر ما تملّك اليهودي في أرضه.

بعد مرور عشرة أيّام من تملّك اليهودي سنتيمترًا واحدًا، جاء الوزير إلى السلطان وقال: إنّ مساحة ما يتملّكه اليهودي في العشرة أيّام الأولى هي 512 سنتيمترًا مربعًا، أي ما يعادل خمسة أمتار مربعة.

فقاطعه السلطان، قائلًا:

- لا بأس أيّها الوزير فهو لم يتملّك شيئًا يذكر في هذه المدة، حيث لم يتجاوز الستة أمتار! فما الضرر في ذلك!

وأمر السلطان بتكملة مشوار اليهودي حتّى الثلاثين يومًا، وبينما الأيام تمضي لتعلن عن اكتمال الثلاثين يومًا أعدّ اليهودي تحفة عظيمة، حملها على هودج ذهبي، وجاء بهما هدية أخرى إلى السلطان يستسمحه في مضاعفة ما يملك من الأرض لمدة عشرين يومًا آخرين، وهو يؤكد للسلطان أنّ هذا هو مطلبه الأوّل والأخير في حياته!

رأى السلطان تحفة لم ير مثلها من قبل، وهودجًا ذهبيًا مرصعًا بالياقوت والزمرد، لم يقدّم مثلهما لملك من قبل، فسال لعابه، وحثّ الوزير على تنفيذ مطلب اليهودي.

ثمّ قال السلطان للوزير:

- اليوم المتمّم للشهر المتّفق عليه مع ديزرائيل، أريد أن تحسب كم من الأمتار يستحق الآن في بلادنا، لأنّه طلب منحه عشرين يومًا أخرى لمضاعفة ما يملك، وقد أبدى لنا الطاعة، وقدّم من الهدايا ما لم يُقدَّم لملك غيرنا.

سمع اليهودي ما قاله السلطان، فتهلّل وجهه بالفرح، وتمنّى أن يلفظ السلطان كلمة تحقّق أمنيته الجديدة، فهو يعلم أنّ كلام الملوك لا يردُّ.

وهنا صاح الوزير قائلا:

- لا توافقه على ذلك يا مولاي. فقال السلطان:
- وممَّ تخشى يا وزير؟ إن ما يملكه حتّى منتصف هذا الشهر لم يصل إلى أمتار تذكر، ولا يكفي حتّى لزراعة عدد من أحواض الفجل أو الجرجير.

لم يقدر السلطان ما سوف يتملّكه اليهودي بعد زيادة عشرين يومًا أخرى، وأيضًا لم يدرك خدعة العقل في هذه الحسبة، عندما تساءل:

- ما وجه الغرابة في ذلك يا وزير؟ وقد قدّم لنا من الترف والهدايا ما يساوي فدادين كثيرة من أراضينا!

هنا أخرج الوزير من جيبه بطاقة صغيرة مبيّنًا عليها ما سوف يتملّكه اليهودي، وأخذ يشرح للسلطان خطورة الموقف، وقال:

- اليوم أتمَّ اليهودي الثلاثين يومًا، وأصبح نصيبه اثني عشر فدانًا، فقاطعه السلطان قائلًا:
- لا بأس، فذلك يتناسب مع هداياه، وإن ما قدّمه يساوي أكثر من ألف فدان من أراضينا.

قال الوزير:

- لا تتعجّل في هذا الأمر، يا مولاي، فهناك خدعة للعقل في هذه الحسبة، ألم يعلم مولاي أنّه إذا وافق على عشرين يومًا أخرى لليهودي، بادئًا بما استحقّه من الأرض بعد مرور هذا الشهر، فسوف يتملّك أكثر من ستة مليون فدان، أي ما يعادل مساحة مملكتكم وما حولها من البلاد، وعندئذ لا يكون هناك موضعًا لأقدامنا.

صمت السلطان مندهشًا، فقصّ عليه الوزير حكاية الملك، الذي غلبه أحد أفراد الشعب في لعبة الشطرنج، وما كان لأحد أن ينتصر على الملك لمهارته في هذه اللعبة.

وعندئذ قال له الملك:

- اطلب ما تتمنى، فقال الرجل: أريد حبّة أرز واحدة توضع في أوّل خانة في لعبة الشطرنج، ثمّ تُضاعف هذه الحبّة في كلّ خانة بعدها، بعدد خانات اللعبة، ولمّا استسهل الملك الأمر، فوجئ بأنّ محصول بلده من الأرز لا يكفي ما طلب الرجل.

هنا أفاق السلطان وضمّ الوزير إلى صدره قائلًا:

- ما كنتُ أظنُّ أنّ هذا التكرار لأيّام قلائل يصل إلى هذا الحد.. فقد أمرنا نحن السلطان بإعادة جميع هدايا اليهودي وطرده من البلاد.